

طبيبٌ يرى حلمه 'المجنون' يتحقّق في المرفق الجديد لرعاية مرضى السرطان في كمبوديا

بقلم ميكولوس غاسبر



سوخا إيف يقف قرب صندوق يحتوى على كاميرا تعمل بأشعة غاما تبرّعت بها الوكالة للمركز الوطني الصحي. وفور افتتاح مركز علاج السرطان الجديد في كمبوديا، سوف تُستخدم الكاميرا لأخذ صور وظيفية للأعضاء البشرية عن طريق رصد الإشعاعات المنبعثة من نظائر مشعّة تُحقن في جسم المريض.

(الصورة من: ميكولوس غاسبر، الوكالة الدولية للطاقة الذرية)

والزيادة السريعة في متوسط العمر المتوقع، صار السرطان واحداً من الأسباب الرئيسية للوفاة في البلاد. وفي حين أنّ كمبوديا ليس لديها سجل وطني للسرطان، يُقدَّر أنّ عدد حالات السرطان يبلغ نحو ١٥٠٠٠ حالة سنوياً من بين ١٥ مليون نسمة هم مجموع سكان البلاد. ويحتاج نحو ٩٠٪ من هؤلاء المرضى إلى شكل من أشكال العلاج الإشعاعي، إلا أنّ آلة العلاج الإشعاعي الوحيدة في كمبوديا، والموجودة في مستشفى الصداقة الخيميرية السوفياتية في بنوم بينه، لا تتسع قدرتها إلا لعلاج قرابة ٥٠٠ شخص سنوياً. وهناك نحو ١٥٠٠ مريض من القادرين على تحمّل تكلفة العلاج في البلدان المجاورة — وهو ما يعني أنّ الغالبية العظمى من المصابين بالسرطان لا تجد سبيلاً للحصول على العلاج الإشعاعي.

وسوف تكون خطة إيف بمثابة خطوة كبرى صوب تغيير هذا الوضع. وسيستهلّ المركز عمله بألة واحدة من آلات العلاج الإشعاعي، ومن المخطّط إضافة آلتين أخريين في السنوات المقبلة. وبعد ذلك، وبحلول عام ٢٠٢٥، سوف يُفتتح مركزان إقليميان لعلاج السرطان، أحدهما في شمال البلاد والآخر في غربها، على أن يضمّ كلّ منهما مرافق العلاج الإشعاعي والطب النووي الخاصة به، وهو ما سوف يتيح إمكانية الحصول على الرعاية لمرضى السرطان بين ٧٠٪ من سكان البلاد. وقال إيف: "سوف تظنّ التغطية غير شاملة حينئذ، لكن الوضع سيكون أفضل كثيراً ممّا نحن عليه اليوم".

اختار سوخا إيف أن يتخصّص في طب الأورام بعد تخرّجه من كلية الطب، اعتبره كثير من زملائه مجنوناً. وكما يتذكّر فقد كان أصدقاؤه يتساءلون: "لمّ تختار تخصصاً لا مستقبل له في هذه البلاد؟". وبعد مضي عشرين عاماً، صار إيف مديراً لقسم الأورام وأمراض الدم في مستشفى كالميت في وسط بنوم بينه، واقترب من تحقيق حلمه: إنشاء أول مركز من نوعه في كمبوديا مكرّس لرعاية مرضى السرطان. وقال مبتسماً: "لقد استغرق الأمر وقتاً طويلاً، بيد أنني أثبتت أنّهم كانوا مخطئين".

ومن المقرّر افتتاح المركز الوطني لعلاج السرطان بمستشفى كالميت في وسط بنوم بينه قبل نهاية العام. ولا يزال الكثير من معدات المركز في صناديق التعبئة أو قيد التركيب، بما في ذلك المعدات التي تبرّعت بها الوكالة ومنها كاميرا تعمل بأشعة غاما وتُستخدم في مسح الأجسام وكُمة دخان مدرّعة لتحضير المستحضرات الصيدلانية الإشعاعية، في حين أنّ آلة العلاج الإشعاعي الخاصة بالمركز — والتي ستكون الثانية من نوعها في البلاد — في طريقها قادمة من الولايات المتحدة. بيد أنّ عمّال التشييد والعاملين بقسم الأورام وأمراض الدم، والذي سيحتلّ موقع القلب من المركز الجديد، يعملون على مدار الساعة من أجل استكمال العمل في الموعد المقرر.

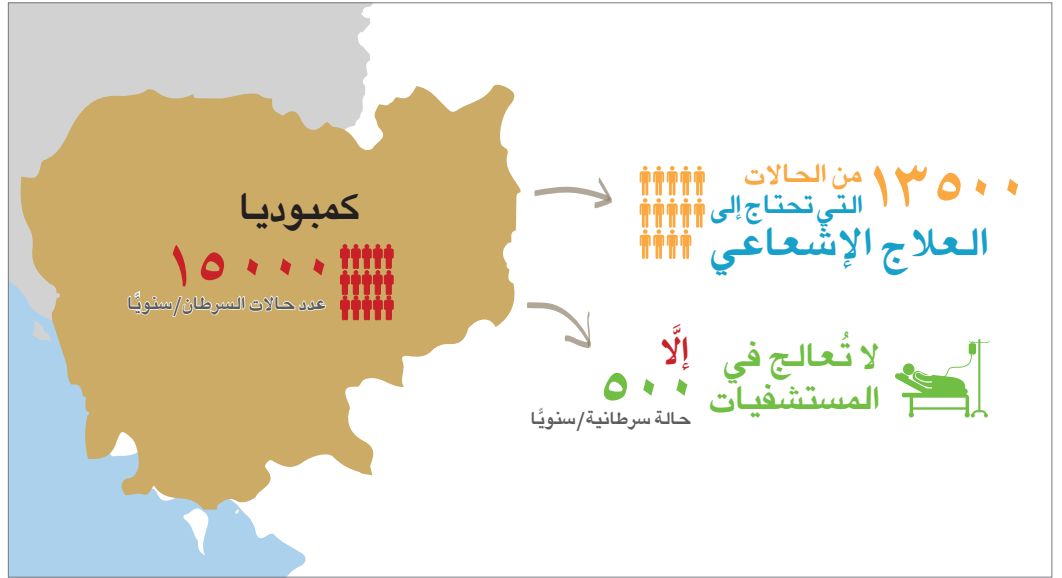
ويعدّ السرطان مشكلة متفاقمة في كمبوديا، كما هو الحال في كثير من بلدان العالم النامي. وبسبب تغيّر عادات الحياة نتيجة لارتفاع مستويات المعيشة

"إن كان بوسعي أن أُغيّر أمراً واحداً فحسب في نظام رعاية مرضى السرطان في كمبوديا، سيكون هذا الأمر هو التشخيص المبكر."

— را تشيانغ، المدير العام، مستشفى كالميت، بنوم بنه، كمبوديا

ولدى كمبوديا ١٥ ٠٠٠ من حالات السرطان سنويًا. ويحتاج نحو ٩٠٪ من هؤلاء المرضى، أي ١٣ ٥٠٠ شخص، إلى شكل من أشكال العلاج الإشعاعي، إلا أنّ آلة العلاج الإشعاعي الوحيدة في كمبوديا لا تتسع قدرتها إلاّ لعلاج قرابة ٥٠٠ شخص سنويًا. وتعمل السلطات الصحية في البلاد مع الوكالة من أجل زيادة القدرة على توفير العلاج.

(الرسم المعلوماتي: فادي نصيف، الوكالة الدولية للطاقة الذرية)



تشخيص السرطان

تشمل الخطط أيضاً تركيب آلة للتصوير المقطعي بالانبعاث البوزيتروني -التصوير المقطعي الحاسوبي لأغراض التشخيص الطبي وسيكلوترون لإنتاج المستحضرات الصيدلانية الإشعاعية من أجل تشخيص السرطان وعلاجه. وقال توماس باسكوال من قسم الطب النووي والتصوير التشخيصي بالوكالة إنّ إنشاء مرفق للطب النووي يُعدّ مكوناً رئيسياً في النهج الشامل الذي تتبّعه البلاد إزاء رعاية مرضى السرطان. وأضاف: "إنّ التشخيص السليم هو الخطوة الأولى في العلاج".

ويتذكّر إيف أنّ الوصول إلى ما تحقّق حتى الآن لم يكن أمراً سهلاً. ففي بادئ الأمر كان هناك تخوّف كبير من الإشعاع، حتى بين المسؤولين في القطاع الصحي والقائمين على إدارة المستشفى. وعرض عليهم إيف إحصاءات تُشير إلى تحسّن أوضاع السرطان في البلدان المجاورة، وأشار إلى معايير الأمان الصادرة عن الوكالة وإلى الدعم الذي تقدّمه من أجل حماية صحة العاملين والمرضى. وحالما أدرك المسؤولون الحكوميون أهمية رعاية مرضى السرطان، خصّصوا الموارد اللازمة لبناء المركز وشراء المعدات — بتكلفة إجمالية قدرها ٣٦ مليون دولار على مدى السنوات الثلاث الماضية.

ولكنّ ما لم يتسنّ شراؤه بالمال، على حدّ قول إيف، هو الخبرات اللازمة لتشغيل المعدات الجديدة. وأضاف أنّ الدعم الذي قدّمته الوكالة في هذا الصدد لا يُقدّر بثمن. فقد شارك نصف الموظفين الأساسيين في فريق عمله، بما في ذلك أخصائيو علاج الأورام الإشعاعي والفيزيائيون الطبييون وتقنيو الطب النووي وأخصائيو العلاج الإشعاعي فضلاً عن أخصائي في الصيدلة الإشعاعية وطبيب مختص بالطب النووي، في المنح الدراسية والتدريبات التي قدّمها الوكالة في مستشفيات في المنطقة وفي أوروبا. وقال إيف: "لم يقتصر ما تعلموه على المهارات التقنية، وإنما شمل أيضاً طرائق التعامل مع المرضى. فتهيئة الجو

المناسب أمرٌ بالغ الأهمية، ولا سيّما عند التعامل مع مرض كالسرطان".

وقال ميكولا كوريلتشيك، المسؤول عن إدارة مشاريع الوكالة في كمبوديا، إنّ القيمة الإجمالية لمشاريع التعاون التقني التي تضطلع بها الوكالة في كمبوديا في مجال رعاية مرضى السرطان والطب النووي قد تجاوزت ١,٢ مليون يورو على مدى السنوات القليلة الماضية. وأضاف مؤكّداً: "لقد كان الأمر يستحق كلّ سنت أنفق. والنتائج المحقّقة غنية عن البيان".

الوقاية

يحظى التشخيص المبكّر بأهمية محورية في تحقيق تحسّن حقيقي في معدّلات البقاء على قيد الحياة بعد الإصابة بالسرطان — وهو ما يُعدّ مشكلة كبرى في كمبوديا، على حدّ قول را تشيانغ، المدير العام لمستشفى كالميت. إذ إنّ ما يربو على ٧٠٪ من مرضى السرطان لا يُحالون إلى أخصائيي طب الأورام إلاّ في المرحلة الأخيرة من المرض حين تكون فرص العلاج الفعّال ضئيلة أو منعدمة. وتقلّ هذه النسبة عن النّثلث في البلدان المتقدّمة النمو. وقال را: "إن كان بوسعي أن أغيّر أمراً واحداً فحسب في نظام رعاية مرضى السرطان في كمبوديا، سيكون هذا الأمر هو التشخيص المبكّر". وأضاف أنّ معرفة المرضى بتوافر العلاج فور افتتاح المركز الجديد سوف يكون حافزاً لهم على التماس المساعدة في وقت أبكر.

وقد كان للتعاون الدولي، بما في ذلك مع الوكالة، دور رئيسي في إنشاء المركز الجديد. وحالما يبدأ تشغيل المركز، يعتزم إيف أن يردّ ما تلقّاه من دعم على مرّ السنوات بنفس الطريقة. "وسوف يحين دورنا في تقديم الدعم لبلدان أخرى وتوفير المنح الدراسية والتدريبات".

وقال إيف وقد علّنت وجهه ابتسامة عريضة: "كانوا يقولون إنّني من أصحاب الخيال الجامح. والآن صاروا أكثر قابلية لتصديق ما أقول".